بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة البصرة

كلية الآداب

الشعر العربي وقضاياه من وجهة نظر عالم الاجتماع علي الوردي

المدرس الدكتور

سلام حديد رسن

1334ه 2013م

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بأهم الآراء النقدية لعالم الإجتماع الدكتور علي الوردي , فيما يخص الشعر العربي في لغته وأغراضه , وهي آراء علمية جادة طرحها الوردي للمناقشة في نهاية الخمسينيات من القرن المنصرم , وشغلت الوسط الأدبي آنذاك , وجعلته يخوض مع الوردي في معارك أدبية محتدمة , وتحليلات سوسيولوجية هادئة أحياناً , وحادة أحياناً أخرى . وقد أمتاز منهج الوردي في هذه المناقشات بالعلمية والموضوعية والجرأة والصراحة , وطرح قضايا أدبية تعد مقدسة بالنسبة للأدباء والنقاد العرب على السواء . إذ حاول الوردي أن يدرس الشعر العربي ونقده بأدوات عالم الإجتماع , بعيدا عن التعصّب والمجاملات , غايته تقييم هذا الفن الأدبي , وتصحيح مساره , ورصد الظواهر السلبية التي تعيق صناعة الشعر شكلاً ومضموناً .

وهذه محاولة منا لمراجعة تلك الآراء , وإعادة مناقشتها نقديا من وجهة نظر علم الإجتماع الأدبي , والنقد الأدبي الحديث معا . وآمل لهذه الدراسة النجاح , وتحقيق الغرض , وما توفيقي إلا بالله .

Abstract

This study aims to announce the most important critical opinions of the sociologist dr. Ali Al-Wardi , on the Arabic Poetry, its arts and specialists, from the Sociological point of view, that are presented by Al Wardi for discussion at the end of the 1950s of the last century .These discussions are academic , and the literary circles were engaged with them at that time and discussed them with Al-Wardi in literary interlocutions, and sometimes with calm sociologic analyses and other times intensely abrupt .Al-Wardi's method in these discussions characterized with its academic , objective, confidence and candor .He also presented literary issues which are considered sacral according to Arab Literatures and critics . Dr.Ali Al-Wardi tried to study the Arabic Poetry and its special and common phenomena with sociology methods, his aim was to evaluate and criticize, correct its path pinpoint the negative phenomena in writing craft formally and contently , far from passion, intolerance and complements which do not serve his career. This study is an attempt to review these opinions and discuss critically , from the point of view of the literary sociology and the modern literary criticism too. I hope for this study to accomplish success and aim.

التمهيد :

يعرف "موريس جينز برج" علم الإجتماع Sociology , بأنه : ((دراسة المجتمع باعتباره شبكة من الأفعال والعلاقات الإنسانية , كما أنه يدرس كل ما يقع في حياة الإنسان من خلال العلاقات القائمة بين الأفراد)) [1]0

وهذا يعني : أن " السوسولوجيا " , هي دراسة الواقع المجتمعي للإنسان . وبلا ريب أن ثمة علاقة للخطاب الألسني - ولاسيما علوم اللغة ومنها الأدب - بهذا الواقع 0 لأن ((المجتمع ذاته يتكون من خلال للغة , وينتظم ويعيد تنظيمه من خلال الخطاب الذي ينتجه 0 إن المجتمع يتجدد و يتحول أو يظل كما هو حين يكتب وحين يتكلم 0 تتكلم المجتمعات وتتعدد خطاباتها , ولا يمكن فصل الخطاب عن النسيج المجتمعي الذي أنتجه , كما لايمكن فصل المجتمع عن مجموع الخطابات التي يلقيها وينشأ بها 0 كل مجتمع يخلق كلماته)) [2] 0

فواقع كل مجتمع - إذن - يكشف عن نفسه بواسطة لغته التي يعبر من خلالها كل مجتمع عن أفكاره وحاجاته وقيمه واتجاهاته و تصوراته 000 إلخ 0 ونتيجة لذلك ((أدى الوعي باللغة كتمفصل للجسم المجتمعي وتمفصل الجسم باللغة إلى ظهور دراسات سوسيولوجية لا تفصل دراسة الجماعات المجتمعية عن الفعاليات الخطابية التي تنتجها تلك المجتمعات 0 بل أن بعض مظاهر الواقع المجتمعي , لا يمكن إدراكها إلا من خلال الخطاب , وذلك مثل التصورات والإتجاهات المجتمعية , والأفكار والقيم الجماعية ...)) [3] .

وحيث أن السوسيولوجيا, أو علم الإجتماع , هو : ((الطريقة المباشرة لدرس المجتمعات التاريخية الحية التي تحقق ذاتها ضمن حركة التبدل و التغير و الوعي و التفكير0 وهنا تبرز إمكانية التقاء الإجتماع بالأدب لكونه نشاطا فنيا واعيا)) [4] 0 وهذا ما دعا عالم الإجتماع "سوينجوود" إلى أن يؤكد حقيقة , وهي

((أن علم الإجتماع والأدب يكمل كل منهما الآخر, ويساعدان الإنسان على فهم المجتمع والحياة الإجتماعية)) [5] .

إذن: ثمة مجال عمل مشترك بين علم الإجتماع وفن الأدب يستحق الإهتمام والدراسة معا من أجل فهم أكثر عمقا لأحوال البشر أفردا كانوا أو جماعات . ولذلك , قرر علماء الإجتماع ((أن الأدب وعلم الإجتماع وجهان لحقيقة واحدة , هي الطبيعة البشرية)) [6] .

وبما أن كل عمل فني- أدبي منتج , هو ظاهرة اجتماعية . فقد اهتم علماء الإجتماع بهذه الظاهرة - أي الأدب - ودرسوها بعمق وإمعان , لأنها تقدم الكثير من المعارف عن حياة الإنسان , كفرد , أو جماعة . وهذا ما يحتاج إليه الباحث الإجتماعي فعلا في مجال تخصصه. حيث أن ((الأدب ظاهرة إنسانية , أرتبط وجودها بوجود الإنسان , وانبثاق الثقافة وتطورها . فالأدب , يعبر ويعكس علاقة الجماعة بالكون وخالقه , وعلاقات الإنسان بالآخرين , وبنفسه , كما يكشف عن قدرة الإنسان على استخدام اللغة للتعبير عن خبراته وآلامه وآماله , وقدرته على تصوير الواقع الذي يحيط به)) [7] .

ولذلك , يرى بعض النقاد : أن الأدب قد تحول إلى شكل من أشكال التاريخ الإجتماعي, بوصفه وثيقة اجتماعية , فالأدب - نثره وشعره - ومن وجهة نظر سوسيولوجيا المعرفة , هو ((الوثيقة الإجتماعية , أو العدسة اللامسة لتصورات المجتمع ومثله وأفكاره واتجاهاته وسيكولوجيته , يصوغها الكاتب في صور قد تفصح عن نفسها من غير ألغاز , وقد يعبر عنها الأديب في رموز مستترة وراء أغطية كثيفة تحجب عنها المعاني , إلا أنها تخرج جميعا في صيغ وتراكيب وبناءات لغوية متمايزة)) [8] .

إذن اجتماعية فن الأدب حقيقة واضحة , لا يمكن إنكارها , أو التقليل من شأنها , يؤكدها علماء الإجتماع بقوة ، ونقاد الأدب – أيضا - على اختلاف اتجاهاتهم . ولهذا ، من حق علماء الإجتماع أن يدرسوا الأدب دراسة اجتماعية ، لان ((ثمة جانب في الأدب لا يستطيع أي دارس له أن يتجاهله ، أو يقلل من أهميته ، هو الجانب الإجتماعي ، فالأدب فن لغوي ، أي أداته اجتماعية ، فاللغة ، لا تكون إلا حيث يكون المجتمع ، والجانب الإجتماعي في اللغة أوضح من أن يشار إليه... والأدب كذلك إنشاء اجتماعي ، لأنه فعل اجتماعي يؤدى في مجتمع ، يقوم به منتج هو الكاتب ، ويتلقاه مستهلك هو القارئ في إطار من العلاقات التي ينظمها هذا المجتمع))[9].

وعلماء الإجتماع يحترمون وجهة نظر الأديب تجاه المجتمع ، ويقدرون مشاركته في إبراز معايب المجتمع في أدبه ، بل وإشاراته للعديد من القضايا الإجتماعية ، التي تمس حياة الإنسان والمجتمع، كالحب والكراهية، والنفاق والتملق, والحقد والثأر ، وغيرها من الأفعال الإنسانية والإجتماعية الأخرى . ولذلك، خصصوا فرعا من علم الإجتماع سموه : علم اجتماع الأدب ، أو سوسيولوجيا الأدب Sociology of literature , يدرس هده القضايا الإجتماعية في فن الأدب حصرا . فهذا العلم ((يهدف إلى دراسة الأدب من منظور علم الإجتماع ، سواء لمعرفة رؤية الكاتب إزاء المجتمع ، أو لربط العمل الأدبي بالبناء الإجتماعي. إذ يساعدنا الأدب أن نتعلم شيئا ما عن المجتمع استنادا على أسس التحليل المقارن. كما تعكس الأعمال الأدبية التغيرات الإجتماعية التي طرأت على المجتمع ، من وجهة نظر الأديب)) [10].

وعلى الرغم من هذا الامتياز النوعي للأدب - في مؤسسة علم الإجتماع الكبرى - وهذه الخصوصية , فأنه ينبغي التأكيد على أن سوسيولوجيا الأدب , لا تعلن نفسها بديلا عن النقد الأدبي , ((بل تعلن عن ذاتها كمعرفة تحليلية تشتغل عن العلائق الممكنة التي يدشنها الأدب مع أبنية المجتمع و " حركياته " , لقد جاءت هذه السوسيولوجيا لتفكك المتن الأدبي وتساءل شروط أنتاجه في الأنساق و الوضعيات الإجتماعية المختلفة , باعتماد مقاربات مغايرة ... فسوسيولوجيا الأدب غايتها تفكيك العلائق القائمة بين الكاتب والعمل الأدبي والمجتمع من جهة ثالثة ، بهدف الوصول إلى تفهم علمي للأسباب المؤدية إلى هذا الإنتاج في موضوعه وقيمه وممارسته أيضا)) [11] .

إن فنون الأدب - على تنوعها, ومنها الشعر- بأمس الحاجة اليوم إلى دراسات مساعدة من مثل سوسيولوجيا الأدب ، كتخصص علمي موضوعي ودقيق ، كفيل بان ((يبين العلاقة بين الأدب والظروف المحيطة به ، ومثل هذا العمل يفيد في إلقاء أضواء متعددة على الظاهرة الأدبية ، كما يفيد في فهم المجتمع ، وبعبارة أخرى ، فان دراسة الظاهرة الأدبية كظاهرة اجتماعية يفيد دارسي الأدب ، كما يفيد علماء الإجتماع أنفسهم)) [12].

وهذا يعني: أن الظاهرة الأدبية - بوصفها مؤسسة اجتماعية - يمكن أن تقدم الشيء الكثير لعالم الإجتماع ، ولذلك ، فثمة أسباب كثيرة تدفع عالم الإجتماع إلى الاهتمام بالأدب , ((فقد يساعد هذا العلم على فهم النصوص الأدبية نفسها، وقد يستفيد هو نفسه من دراسة هذه النصوص، لان علم الإجتماع لا يزعم لنفسه احتكار الأساليب أو المناهج التي تكفل الكشف عن حقيقة الواقع الإجتماعي. فضلا عن أن الأدب له دور فعال في جعل علم الإجتماع أكثر حساسية للمجتمع بشكل عام)) [13].

وباعتراف علماء الإجتماع أنفسهم , أن ((الأدب , قد يقدم استقصاء أعمق لمشكلة إنسانية واجتماعية ما من ذلك الذي يطرحه عالم الإجتماع)) [14]. فليس من الصواب أبدا - بعد كل هذا - أن ننكر فضل النقد السوسيولوجي , الذي ((خدم الأدب أكثر من باقي المناهج النقدية الأخرى , بل أن اغلب القراءات العلمية والرصينة للأدب ، كانت قادمة من رحم النقد السوسيولوجي , أو على الأقل متأثرة به ، فعلى امتداد تطورات هذا النقد من حيث تجديد الأدوات والصيغ المحتملة لدراسة النص الأدبي، بدأ النقد السوسيولوجي الأقرب إلى قراءة النصوص في اتصالها الوثيق مع تربة الواقع الذي أنبتها ، وجعلها تبدو في صورة هذا الجنس أو غيره)) [15] .

من كل هذا , يتأكد لنا حاجتنا الفعلية إلى علم الإجتماع ، ولاسيما علم الإجتماع الأدبي ، كتخصص دقيق قادر على متابعة المنجز الأدبي وتقييمه ونقده ، ((والحق أن علم الإجتماع الأدبي , لا يزال ميدانا خصبا للدراسات الأدبية والأكاديمية , يمكن الإفادة من ميادينه في سياق تقييم الآداب ونقدها, وقراءة النصوص... قراءة " كاشفة وواقعية وواعية " ... فضلا عن دراسات ميدانية تكشف عن مستويات القراءة)) [16] .

بعد توضيح العلاقة بين الأدب وعلم الإجتماع , وهي - بلا ريب - علاقة مثمرة ومتميزة بين الطرفين . بقي أن نعرف كيف استطاع الوردي - وهو عالم اجتماع متمرس - أن يبحث في الشعر العربي ولغته وأغراضه ؟ وكيف أفاد الوردي من علم الإجتماع وأدواته العلمية وبحوثه الموضوعية ، في تقييم المنجز الشعري العربي القديم والحديث ؟

هذا ، ما يحاول البحث التعرف عليه من خلال الرصد والمتابعة ، لأبرز القضايا الشعرية التي ناقشها الوردي ، وعلّق عليها ، في كتابه : " أسطورة الأدب الرفيع " ، الذي ضم معظم آرائه النقدية وتحليلاته السوسيولوجية للشعر العربي ، وقد اخترنا في هذا البحث محاور للدراسة منها :

1) حقيقة الشعر الجاهلي . 2) شعر المديح واستقراء القيم الاجتماعية .

3) ظاهرة التغزل بالغلمان . 4) الشعر العربي بين البداوة و التحضر .

5) الشعر العربي الحديث . 6) الشاعر واللغة .

أولاً- حقيقة الشعر الجاهلي :

يشير الدكتور علي الوردي , إلى أن أحدى المفارقات العجيبة التي أبتلي بها المجتمع العربي في عصوره المتأخرة , حيث وجدناه يعتز بالقرآن وبالشعر الجاهلي معا , بالرغم مما بينهما من فرق كبير جدا . يقول الوردي : ((إنهم لم يدركوا البون الشاسع بين روح الشعر وروح الإسلام ، وقد اقتدى بهم المسلمون في هذا السبيل، حيث شجعهم فيه مجتمعهم ذو القيم المزدوجة , وبهذا صاروا يعتزون بالقرآن وبالشعر الجاهلي في آن واحد. وتلك هي من المفارقات الكبرى في المجتمع العربي)) [17] .

لقد شغل الشعر الجاهلي حيزا كبيرا من حياة العرب وثقافتهم , وصار مثالا أعلى يحتذون به في كل صغيرة وكبيرة من حياتهم تلك , و((لقد أصبح الشعر الجاهلي في نظر العرب , على أي حال , ذا شأن رفيع , وأخذوا ينظرون إليه من الناحية الأدبية , كما ينظرون إلى المثل الأعلى . ويصح القول : إنهم صاروا لكثرة ما يرددونه ويتمثلون به , يحسبونه آية في الروعة والجمال . فلقد حفرت قصائده في أدمغتهم أخاديد عميقة جعلتهم يستشفون وراء كل بيت معنى عميقا)) [18] .

غير أن هذه القداسة التي يكنها العرب للشعر الجاهلي , أخذت تهتز اهتزازا عنيفا في القرن العشرين , حينما جاء الدكتور طه حسين بنظريته المعروفة في نقد الشعر الجاهلي أو الشك فيه! حيث يعتقد الدكتور طه حسين : أن الشعر الجاهلي الموجود بين أيدينا ليس جاهليا, وإنما هو منحول اختلقه الرواة في عصر متأخر! واستند طه حسين في ذلك إلى مقارنة الشعر الجاهلي بما جاء في القرآن الكريم من وصف لحياة الجاهلية أو انتقاد لها. يقول طه حسين :

((إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شئ , وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام , فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا , ولا يدل على شئ ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي)) [19] .

وفي الحقيقة أن طه حسين لا ينكر الحياة الجاهلية ، وإنما ينكر هذا الذي يسمى بالأدب الجاهلي الذي يمثلها, فهو لا يعبر بصدق عنها, ولذلك هو, لا يثق بهذا الشعر قولا ونسبة. يقول : ((ذلك أني لا أنكر الحياة الجاهلية , وإنما أنكر أن يمثلها هذا الأدب الذي يسمونه الأدب الجاهلي. فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية, فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي , لأني لا أثق بما ينسب إليهم, وإنما أسلك طريقا أخرى , وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته , أدرسها في القرآن. فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي , ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه)) [20] .

إذن , طه حسين يدعو إلى التماس مرآة الحياة الجاهلية في القرآن الكريم , لا في الأدب الجاهلي , لأنها في القرآن أصدق تصوير , ولاشك فيها مطلقا , كما هو الحال في الشعر الجاهلي .

والفرق الكبير بين تمثيل القرآن الكريم لأهل عصره من الجاهليين, وتمثيل الشعر الجاهلي لتلك الحياة بشكل مغاير تماما , حتما هو السبب الذي دفع طه حسين للشك في أشعار أهل الجاهلية تلك ! واعتماده القرآن الكريم المصدر الرئيس لحياة الجاهليين , وليس أشعارهم المشكوك فيها ! والسبب كما يقول : ((إننا حين ندرس القرآن , نجده يمثل أهل زمانه تمثيلا مباينا لتمثيل الشعر لهم , ونحن مخيرون إذن بين أن نكذب القرآن أو نكذب الشعر الجاهلي . ولما كان القرآن صادقا, فلابد أن يكون الشعر الجاهلي الكاذب أو المكذوب)) [21] .

لقد انتقد الدكتور علي الوردي نظرية طه حسين تلك حول الشعر الجاهلي, وانتقد منتقديها أيضا, بسبب الردود الضعيفة عليها , والبراهين غير المقنعة التي قدموها . فقال: ((والغريب أن براهينهم [أي نقاد نظرية طه حسين] في هذا الصدد, لم تخرج عن النطاق الذي افترضه طه حسين مقدما. فقد أخذوا يأتون بالأمثلة من الشعر الجاهلي للتدليل بها على أن هذا الشعر بحث في جميع الأمور التي أشار إليها القرآن , وهو إذن يمثل الحياة الجاهلية أصدق تمثيل)) [22] .

ويعيب الدكتور علي الوردي , على الدكتور طه حسين ونقاده , بأنهم نسوا الفوارق الجوهرية بين كل من القرآن الكريم والشعر الجاهلي, ومضمون كل منهما في تصوير الحياة الجاهلية. يقول الوردي: ((نسي هؤلاء , كما نسي الدكتور طه شيئا واحدا كان الجدير بهم أن لا ينسوه , وبهذا ضاعت جهودهم وجهود دكتورهم هباءا. لقد نسوا أن القرآن يمثل الحياة الجاهلية من زاوية تختلف عن زاوية الشعر الجاهلي , وأن كليهما كان صحيحا في تمثيله بالرغم من تفاوتهما في التصوير)) [23] .

فالاختلاف في المنهج والرؤية بين القرآن والشعر الجاهلي لحياة المجتمع الجاهلي, يؤدي – حتما - إلى اختلاف في المضمون , ولذا حاول الدكتور علي الوردي توضيح هذا التفاوت في التصوير بين القرآن الكريم

والشعر الجاهلي للحياة في الجزيرة العربية وما حولها آنذاك , باحثا القضية من منظور آخر, يقول: ((ومما يجدر ذكره أن القرآن يمثل ثورة اجتماعية ودينية ضد المترفين الذين كانوا يسيطرون على المجتمع المكي. انه كان بعبارة أخرى يحارب قريشا , وينتقد وثنيتها ورباها واستعلاءها وبغيها ونكثها بالعهود. أما الشعر الجاهلي , فكان غير مكترث بمكة وبما يجري فيها. أنه لا يرى مكة إلا في موسم الحج , وهو يراها آنذاك حاشدة بالناس , وقد امتلأت بالثريد الذي كانت قريش تقدمه لهم وفيرا . كان الشعر الجاهلي في معظمه , يمثل الحياة البدوية التي تسود القبائل خارج مكة . وليس عجبا بعد هذا أن نجده مختلفا عن القرآن في تصوير الحياة . إنه بواد , والقرآن بواد آخر. وشتان مابين الواديين)) [24] .

ويرى الوردي: أن كثيرا من الباحثين الذين درسوا الشعر الجاهلي , قد ارتكبوا خطأ كبيرا حينما لم يدرسوا حياة المجتمع الجاهلي دراسة اجتماعية, لكي يتبينوا حقيقة الشعر الجاهلي, وكيفية تصويره لحياة هذا المجتمع آنذاك . فقال : ((لقد كان المجتمع المكي في أيام الجاهلية يختلف عن المجتمع القبلي الموجود في الصحراء , ويصح القول انه كان يجمع مساوئ البداوة ومساوئ الحضارة معا. فلقد كان يحتفظ بالعصبية القبلية في أبشع صورها, ولكنه من الجهة الأخرى كان يحتوي على مساوئ غير موجودة في مجتمع البداوة . فكان به التمايز الطبقي والفخار بالمال والبخل والاستغلال. وبهذا وصل التفسخ الإجتماعي فيه إلى أبعد الحدود.

حين نقرأ القرآن ثم نقرأ الشعر الجاهلي, نحس بالفرق الكبير بين مجتمع مكة ومجتمع البداوة. ويؤسفنا أن نجد مؤرخي الأدب العربي لا يلتفتون إلى هذه الناحية في دراستهم للشعر الجاهلي .إنهم بالأحرى لا يفرقون بين قبيلة قريش والقبائل الأخرى من الناحية الإجتماعية, ويدرسونها جميعا بمنظار واحد)) [25] .

بلا ريب أن المنهج الذي سلكه القرآن الكريم في تصوير الحياة الجاهلية, يختلف اختلافا جذريا عن تصوير الشعراء الجاهليين لها . وهذا الأمر يدعو إلى تكثيف البحث الإجتماعي لبيان حقيقة هذا الفرق في التصوير. وهو ما دعا إليه الوردي حينما نقد نظرية طه حسين حول حقيقة الشعر الجاهلي , وقدم خلاصة يقول فيها :

((إن المجتمع المكي كان يختلف عن المجتمع البدوي من نواح شتى.وهذا هو سبب ما نرى من فرق كبير بين القرآن والشعر في تصوير الحياة الجاهلية.

فلقد نزل القرآن ثائرا على ذلك التفسخ والتمايز الطبقي الذي كان سائدا في مكة . بينما كان الشعر مشغولا بمفاخراته ومنابزاته القبلية , غير شاعر بما كان عليه الحال في مكة . ولست أدري لماذا لم يلتفت الأدباء, أو عميدهم الدكتور طه حسين إلى هذه الناحية الهامة عند دراستهم الأدب الجاهلي؟ لعلهم انهمكوا بعلوم البيان والمعاني والبديع, فانشغلوا بها عن الإصغاء إلى ما يقوله علم الإجتماع في هذا الشأن)) [26] .

ويرى الدكتور علي الوردي أن الذي دفع بالدكتور طه حسين إلى القول: بأن الشعر الجاهلي منحول ! هو أنه ((قد قارن القرآن بالشعر الجاهلي, فوجد بينهما بونا شاسعا من حيث الأفكار والمفاهيم , ودفعه ذلك إلى القول : بأن الشعر الجاهلي منحول ! وهو لو تأمل قليلا لوجد هذا الشعر غير منحول , إنما هو يدعو إلى مفاهيم في الحياة تناقض مفاهيم القرآن . وهنا تكمن عظمة القرآن . أراد القرآن أن ينسف قيم الجاهلية وتقاليدها الرعناء , بينما كان الشعر يفتخر بتلك القيم ويكاد لا يفهم من الدنيا سواها. وقد اتهمت قريش محمدا, بأنه كان شاعرا بينما كان في حقيقة أمره ثائرا جبارا. ولو كان شاعرا كما زعموا, لما أحدث في التاريخ ذلك الدوي الهائل والانقلاب العظيم)) [27] .

لقد استطاع الدكتور علي الوردي أن يناقش بعلمية وموضوعية , وبعيدا عن التعصب قضية هامة أثارت الوسط الثقافي والأدبي في وقتها , وهي مسألة الشك في الشعر الجاهلي , وحقيقة وجوده أصلا , وهل هو يمثل أهل عصره تمثيلا صادقا أم لا ؟ والفرق بين هذا الشعر والقرآن الكريم من ناحية تصوير الحياة الجاهلية وقيمها الإجتماعية. وتوصل الوردي عن طريق تحليل النصوص وتفسيرها اجتماعيا بين كل من القرآن الكريم والشعر الجاهلي , إلى أن ذلك الفرق في التصوير ، إنما هو ناتج عن اختلاف في الرؤى والمنهج بين القرآن الكريم وأشعار الجاهليين تلك. وهي محاولة رائعة للتفسير، ينبغي احترام جهد صاحبها، والسعي الجاد

إلى تطوير البحث فيها، كونها ترد على نظرية الشك في الشعر الجاهلي ، بطريقة علمية موضوعية , لا جدلية حسب، متخذة من التفسير الإجتماعي دليلا وحكما. ولأنها صادرة عن باحث اجتماعي , حاول الوصول إلى حقائق الظواهر بالأدلة والبراهين. فضلا عن أنها لا تقبل بالتفسير الواحد لدراسة الظاهرة , وترفض الاعتماد على منهج وحيد بعينه ، بل تدعو إلى مشاركة أكثر من منهج بغية الوصول إلى نتائج مقبولة في البحث العلمي .

ثانياً- شعر المديح واستقراء القيم الإجتماعية :

انتقد الوردي النزعة السائدة في الشعر العربي القديم، وهي وصول شعر المديح فيه إلى درجة الاستجداء وأكثر، وهذه النتيجة التي خرج بها الوردي مبنية على أساس من القراءة والإحصاء والتحليل للعديد من دواوين الشعراء العرب . يقول الوردي: ((حين نقرأ دواوين الذين نهجوا في شعرهم منهج القدماء ، نجد نزعة الاستجداء واضحة فيها... فنراهم يتقدمون بين يدي ممدوحيهم بقصائد عجيبة من الثناء الغالي. وهم لا يترددون أن يجعلوه ملاكا في صورة إنسان وخير من ركب المطايا. ولكنهم لا يكادون يجدون جائزته غير كافية ، حتى يقلبوا عليه ، ويجعلوه ألعن خلق الله طرا .

وقد نشأ من جراء ذلك في الناس معيار مزدوج تجاه الشعراء ، فصاروا لا يكترثون حين يجدون الشاعر يمدح من لا يستحق المدح ثم يذمه بعد ذلك . وهم قد يستجدون القصيدة بغض النظر عما فيها من كذب أو نفاق فضيع 0 و أمست جودة الشعر تقاس عندهم بحسن ألفاظه لا بصحة معانيه 0 وأنتشر بينهم قول القائل : ((أعذب الشعر أكذبه)) !)) [28] .0

ويستنكر الوردي على كثير من شعراء العرب, أن يكونوا شحاذين بأدبهم للحكام والسلاطين والأغنياء, وهم ينبغي أن يكونوا أصحاب رسالة إنسانية واجتماعية في فنهم وحياتهم . فلقد ((كان الشعراء قديما يتقدمون بين يدي السلطان , فيلقون القصيدة العصماء , يصفونه فيها بأنه أفضل الخلق طرا وخير من ركب المطايا. وهم يأملون من وراء ذلك بالجائزة الدسمة أو الجارية الدعجاء ... اعتاد الشعراء على ذلك جيلا بعد جيل حتى صاروا يغالطون أنفسهم ويتظاهرون بأنهم رواد الحق والحقيقة , وأنهم شموع تحترق)) [29] .

لقد رفض الوردي مثل هذا النوع من نظم الشعر , وعده شعر استجداء , ما غايته إلا تمريخ عواطف السلاطين , وتمجيد أعمالهم 0 بغض النظر عن الجانب الأخلاقي للممدوح 0 ورفض الوردي كذلك رأي من قال : انه يجب أن ننظر إلى جمال الأسلوب في هذا النظم دون النظر إلى الجانب الإجتماعي . فقال : ((ونحن قد نعطي لهؤلاء بعض الحق في رأيهم هذا , فمن الممكن أن ننظر في الفن نظرا موضوعا , ونجرده من صلاته الإجتماعية أحيانا , ولكن هذا أمر شروطه وحدوده ، أما الاندفاع فيه من غير حد، فقد يؤدي بالناس إلى الاعتياد على النفاق أو ازدواج الشخصية بوجه عام)) [30] .

ولقد توصل الدكتور علي الوردي – بعد أن قام بتحليل شخصية الشاعر العربي تحليلا اجتماعيا مبنيا على ما يقوله هذا الشاعر في مديحه - إلى نتيجة أكد فيها أننا ((نستطيع أن نقول - بوجه عام – إن الشاعر العربي يملك شخصية مزدوجة . فهو يظهر غير ما يبطن ، ويقول مالا يفعل !... إن الصفة الغالبة على الشعر طوال قرون ، تلك الصفة التي جعلت الشاعر العربي يمدح ويذم كما يشتهي من غير اهتمام بما ينتج عن ذلك من ضرر اجتماعي كبير))[31].

ومما يؤسف له أن بعض النقاد قد دافع عن هذا الإزدواج في شخصية الشعراء هؤلاء , بحجة وهي ((أنهم أصحاب فن لا أصحاب رسالة في الحياة))[32]. ورد الوردي على حجتهم هذه ، فقال : ((رسالة الفن هذه الحجة التي يتخذها كثير من الشعراء غطاء يسترون بها حقيقة أنفسهم . ويا ليت شعري ماذا يقصدون بالفن. أنهم يركضون وراء الجائزة ، فإذا أعطوا منها رضوا، وإذا حرموا سخطوا . ثم يرفعون عقيرتهم بعد ذلك هاتفين بالفن : يعيش الفن))[33] .

الفن والأخلاق لا تعارض بينهما ، هذا الذي يجب أن يكون ، وأن الشاعر- في رأينا – ينبغي أن يكون صاحب رسالة في الحياة أولا ، ثم ينتهج لهذه الرسالة مسلكا فنيا جميلا ، يوصلها إلى الناس بأبهى صورة ، لكي يستخلصوا منها المتعة الفنية والعبرة الأخلاقية معا . فحرفة الشعر لا تعني امتهان كرامة الشاعر مطلقا ، أو طلب الاستجداء بفنه الراقي ، فضلا عن أنه لا يجوز أبدا قطع الصلة بين الأدب والغايات الإنسانية والإجتماعية ، وهو الخطأ الذي وقع فيه دعاة الفن للفن . ولذلك يقرر الناقد الأمريكي ت. س . اليوت : ((أنه مهما قيل في استقلال الفن ، وما اجتهد أهله في الاكتفاء به غاية في ذاته ، فأنه لابد أن يمس مسائل الخلق والدين والسياسة ، على الرغم من استحالة تحديد الطريقة التي يمس بها هذه المسائل))[34] .

وتأكيدا على القيمة الأخلاقية لمعاني الشعر ، انتقد الوردي موقف بعض النقاد القدماء الذين جعلوا كل دأبهم الناحية الفنية من هذا الشعر- أي شعر المدح- وحسب . فقال : ((يؤسفني أن أرى نقاد الشعر قديما يقدرون الشعر من الناحية الفنية فقط ، ويغضون النظر عما وراء فن الشعر من تقلب , وقد شاع بينهم قولهم في وصف الشعر : ((أكذبه أعذبه)) . فهم لايكترثون للمعنى الذي جاء به الشاعر , بل يكترثون للصيغة الفنية التي أتقنها في شعره . فالمتنبي مثلا مدح كافور الإخشيدي ثم ذمه بقصائده العصماء ... وهو أنما مدحه أولا طمعا بالجائزة , ولما خاب أمله منها أخيرا أخذ يذمه . ونرى النقاد يغضون النظر عن هذه الناحية من شعر المتنبي , ويركزون نظرهم على جودة الشعر من الناحية الفنية))[35] .

إن من المسائل الجوهرية التي يؤكد عليها النقد الأدبي الحديث, هي أن الانصهار الكلي بين التجربة الذاتية والإنسانية المشتركة , تفرض على الشاعر- في فنه وسلوكه- ألا يحصر اهتمامه بذاته وحسب , ((فليس الشعر مقصورا على حدود اللذة الجمالية , ولكنه يجب أن يخدم قضايا الإنسان كما يفهم من الخدمة أنبل ما يكون , وأشمل ما توجد))[36] .

في الفن عموما , ولاسيما في فن الأدب , يرى النقاد أنه ((لا معنى لقيم جمالية إذا لم تظهر من ورائها التزام اجتماعي , أو خلقي , أو ميتافيزيقي , في صورة من الصور , تهدف إلى المشاركة في قضايا الإنسان ومشكلاته))[37] . بغض النظر عن جنس هذا الإنسان , أو لونه , أو عقيدته .

ولذلك , فاعتراض الوردي على موقف النقاد القدماء المتساهل من شعر المديح , إنما هو اعتراض أخلاقي أساسا , فبحجة الفن للفن , لايعني الابتعاد عن الرسالة السامية للأدب . وكما يوضح الوردي موقفه بقوله : ((أننا لانلوم الشاعر على ذمه أو مدحه , فهو قد اتخذ الشعر حرفة له يرتزق منها , على نحو مافعل الحداد والنجار والصائغ . ولكننا نلوم نقاد الشعر الذين يصفون الشاعر بأنه صاحب رسالة سامية , وأنه كالشمعة يحترق لكي ينير السبيل لغيره , حتى إذا درسوا شعره لتقييمه نسوا الرسالة والشمعة وانهمكوا في الفن من أجل الفن))[38] .

إن هذا المفهوم الضيق للفن والأدب , الذي يحصر اهتمام الشاعر وفنه في زاوية واحدة من القول أو الاتجاه , أصبح اليوم مرفوضا من النقاد والشعراء أنفسهم ومن الجمهور كذلك ! فلقد نبه نقاد الأدب في العصر الحديث إلى ((أن قضية الشعر للشعر , لا يقصد بها أصحابها أن يستخدم الشاعر براعته في النظم , كي يمدح أو يذم , أو يرفع أو يضع , أو ليساير من يشاء له هواه ومطامعه , فيمدح اليوم ما ذمه أمس , ليظهر براعته في اللغة , أو ليصل إلى أغراضه الخاصة به ... فهذا كله ينافي التجربة وصدقها , وينافي رسالة الشعر الوجداني من سبر أغوار القلب الإنساني))[39] .

والوردي - بعد كل هذا - يطلب من الآخرين أن يتفهموا موقفه الرافض لأدب الحكام ، ومخاصمته لأدبائه , فهو ليس في خلاف مع الأدب العربي كله , وإنما مع نوع معين منه , وهو الأدب الذي لا يمثل الطبقة العريضة من الجمهور , بل يمثل طبقة معينة منهم . ولذلك هو يوضح موقفه هذا بقوله : ((قد يظن بعض القراء أني إذ أخاصم أدباء السلاطين أقصد بذلك مخاصمة الأدب العربي كله، أو أدعو إلى نبذ الأدب , وإلى الاستعاضة عنه بالعلم , وهذا أمر لم يخطر ببالي بتاتا . الواقع أني من المؤمنين بالأدب , ومن الذين يرون فيه عاملا مهما من عوامل التطور الإجتماعي . وفي اعتقادي أن الأدب حاجة بشرية لا يمكن أن يستغنى عنها , أو هو بعبارة أخرى لا يقل في أهميته عن العلم)) [40] .

ولأن ثمة علاقة تربط بين الشعر – كظاهرة فنية- والمجتمع الذي نشأ فيه , فعلى الباحث أن ينتبه لهذه العلاقة ونتائجها, ذلك ((بأن الشعر له ناحيتان : فنية واجتماعية . وهو في ذلك لا يختلف عن أي شئ من شؤون الحياة . فالقصيدة الشعرية هي قبل كل شئ قطعة فنية . إنما هي بالإضافة إلى ذلك ظاهرة اجتماعية لها مساس مباشر بما ينشأ بين الناس من صلات التعاون والتنازع)) [41] .

لذلك , وتأكيدا على دور الشعر في تصوير القيم الإجتماعية , يرى الدكتور علي الوردي , أن باستطاعة الباحث الإجتماعي دراسة القيم الإجتماعية في المجتمع العربي , ولاسيما عن طريق شعر المديح , إذ ((أن من السهل على الشاعر أن يكذب في مدحه وذمه , إنما يصعب عليه أن يكذب في ذكر القيم الإجتماعية التي يستند إليها معيار المدح والذم في زمانه. فالشاعر قد يمدح رجلا ويصفه بالشهامة . وربما كان الرجل غير شهم , حيث كذب الشاعر في وصف الرجل بها . ولكننا نعرف من هذا الوصف أن الشهامة صفة محمودة في المجتمع الذي يعيش الرجل فيه)) [42] .

وهذا يعني : أن شعر المديح من أكثر الأغراض الشعرية دلالة اجتماعية , وأقربها إلى واقع المجتمع وعاداته وتقاليده وقيمه . ومن ثم يستطيع علماء الإجتماع استقراء تلك القيم الإجتماعية من أشعار هذا الغرض وحده وبنسبة عالية جدا . فضلا عن أنه يستطيع الباحث الإجتماعي الإفادة من الشعر عموما , ومن شعر المديح خصوصا في دراسة تاريخ الشعوب لا تاريخ الحكام , وما كان يسود تلك الشعوب في مجتمعاتها من قيم أخلاقية ودينية واجتماعية . صحيح أننا لا نستطيع ((أن نستقرئ حوادث التاريخ من النصوص الشعرية . فالشاعر كذاب قد يقلب الحق باطلا والباطل حقا من جراء نزعته الفنية أو من جراء طمعه بالجائزة . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستقرئ من شعره القيم الإجتماعية التي كانت تسيطر على عقول الناس في زمانه ... الواقع أننا نستطيع أن نستفيد من الشعر في دراسة التاريخ . وأقصد بالتاريخ هنا تاريخ الشعوب لا تاريخ السلاطين .

إن الشعر لا يفيدنا في تاريخ السلاطين كثيرا . إذ هو يصور لنا كما يشتهي , وبذلك يضيع علينا الحقيقة . أما في تاريخ الشعوب, فالشعر يصور لنا القيم الإجتماعية التي كانت تسيطر على الناس... وهذا هو ما نبتغيه من دراسة المجتمع البشري)) [43] .

وسبق الإشارة في التمهيد لهذا البحث , إلى أن علم الإجتماع - في أساسياته - يرى أن الأدب قد تحول إلى شكل من أشكال التاريخ الإجتماعي , بوصفه وثيقة , وهذا بدوره يتيح لعالم الإجتماع وظيفة التحليل الإجتماعي للعمل الأدبي . ((فالأدب يؤدي بوسائل وقوالب الإبداع الفني والجمالي وظائف تتصل بالإنسان والمجتمع , وبالتالي يمكن أن يشكل موضوعا للدراسة في علم الإجتماع . آية ذلك أن أي أدب , كيفما كان , لابد من أن يحتوي على مدلول ... فمن الضروري أن يرتبط هذا المدلول بقضية اجتماعية)) [44] .

وهنا تكون مفاهيم علم الإجتماع وأدواته ووسائله حاضرة وبقوة في دراسة الأدب , بل وتعطي ثمارها المرجوة , فعالم الإجتماع يستفيد - أيما فائدة - من الخطاب الأدبي , لأن هذا ((الخطاب يعكس الواقع , ينظمه ويعدله , وأن الواقع المجتمعي يخلق خطاباته ويعيد إنتاج نفسه من خلالها . وهذا يعطينا مشروعية تحليل تلك الخطابات لفهم الواقع المجتمعي في مختلف مستوياته العميقة . والخطابات نفسها تظل بلا معنى إن لم تتجذر في السياق الإجتماعي والثقافي بما في ذلك أنساق الدلالات بصفتها لغة شكلية أو طبيعية...)) [45] .

أما عن موقف النقد الأدبي الحديث من شعر المديح , فهو موقف واضح وصريح , إذ يعلل الدكتور داود سلوم سبب انتشار شعر المديح في الأدب العربي , وامتهان الشعراء له بكثرة مفرطة أحيانا , يرجع - في رأيه - إلى ((أن أسلوبية الحضارة العربية جعلت من الشعر العربي الفن الوحيد الذي له القدرة على صياغة المواقف وتعريف الشخصيات , وتقديمها إلى المجتمع ونعني بذلك أن شعر المدح كان أحد الأسباب الذي ساعد على تدخل السلطة في المضمون الشعري ثم في المقياس النقدي)) [46] .

وحول نفس الموضوع أشار الناقد الدكتور داود سلوم إلى أن النقاد العرب القدامى , قد أسهموا - أيضا - وبشكل مباشر وفعال في تقنين قواعد فن المدح خدمة للسلطات الحاكمة حيث ((أن موقف السلطة من شعر المدح هذا الموقف الاحتكاري , كان أحد البواعث لقواعد النقد بعد استقراء هذه النصوص والنظر فيما يتطلبه

الممدوح أحيانا من الشاعر, وهو باب يفسر لنا العلاقة بين السلطة والنقد, وخضوع الناقد شعوريا أو لاشعوريا لهذا عند تقنين الظواهر النقدية , أو وضع التوصيات والنصائح للشاعر فيما يخص شعر المدح)) [47] .

بلا ريب : أن حرص السلطة على المدح , ومحاولة احتكار هذا الفن لشخص الحاكم في حياته , أوقع الشاعر نفسه في مآزق كثيرة , فأنانية الفئة الحاكمة ورغبتها في أن تكون الصورة المثلى أمام الرعية , والأفضل دونها , تضطر الشاعر – في أحيان كثيرة – إلى الكذب في تصوير شخصية الممدوح , وهذا ما يقودنا إلى قضية الصدق والكذب في الشعر , ((فالعقل لايطمئن إلا إلى الصدق , وهو يستوحش من الكلام الجائر الباطل , والصدق أيضا يعني السلامة من الخطأ في اللفظ والتركيب والمعنى , وهذه أمور لابد أن تتحقق في القصيدة , كذلك على الشاعر أن يكون صادقا عن ذات نفسه , وهو يكشف عما يختلج فيها , ويكون صادقا في تجربته , صادقا بالمعنى التاريخي حين يقص خبرا , صادقا على مستوى أخلاقي , فلا ينسب الجبن للشجاع , ولا يسمي الكريم بخيلا)) [48] .

فوظيفة الشاعر في فن المديح - غالبا - ليس غايتها نقل الصورة الحقيقية للممدوح , بل ((تبدو مهمة الشاعر الأساسية فيها إرضاء المخاطب الممدوح وذلك كفرد وحسب , وإنما غالبا كبطانة ومجلس أو بلاط وجو ثقافي عام كذلك)) [49] .

وربط الدكتور بدوي طبانة كثرة شيوع هذا النوع من الشعر في الأدب العربي , بسبب استبداد حكومة الفرد , وكان نتيجة هذا الاستبداد ((سواء في الشرق أو الغرب إماتة الشعر الحماسي , وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح الباردة , والإطراء الفارغ للملوك والأمراء والوزراء , وابتعادهم عن كل ما يربي النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال... فعلى الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح في أيام معلومة ومواسم معدودة , وأن يستعملوا هذه المواهب الربانية العالية في خدمة الأمة وتربيتها , بدل أن يصرفوها في خدمة الأغنياء , وتملق الأمراء , والتقرب من الوزراء , فالحكام زائلون والأمة باقية)) [50] .

ولم يسلم الأدباء في العصر الحديث من انتقاد الوردي لهم كذلك , طالما سلكوا هذا المنهج فنيا واجتماعيا في حياتهم , أي التكسب بشعرهم . قال الوردي : ((بأننا لا يجوز أن نلوم الأديب القديم على تزلفه للمترفين وعلى السعي وراء جوائزهم . إنما نلوم الأديب الذي يعيش في القرن العشرين , وهو لا يزال يكتب وينظم على نمط أسلافه البائدين)) [51] .

والوردي , ليس وحده في هذا الانتقاد الذي وجهه للشعراء في العصر الحديث , بل شاركه نقاد آخرون , منهم الناقد الدكتور محمد النويهي , الذي أخذ على شعراء عصره – أيضا- ظاهرة التكسب في المديح الذي شاع بينهم , رافضا تسخير الشاعر فنه لغرض الكذب أو التملق للآخرين بحجة الفن للفن . فعنده أن ((التشكيل الفني , هو أكمل أداة اخترها الإنسان حتى الآن , لنقل تجاربه هذه نقلا وافيا حيويا تام الإحاطة والعمق , ولكن ماذا تكون فائدة الأدب إذا أساء الإنسان استخدام هذه الأداة العظمى ؟ فلم يستعملها لنقل تجاربه الصحيحة وعواطفه المخلصة , بل سخرها للكذب والتزييف)) [52] .

إن فن الشعر من أكثر الفنون إثارة للمتلقي , وتأثيرا في نفسيته , وعلى الشاعر المبدع تسخير فنه هذا لغرض نقل التجارب الصادقة والعواطف المخلصة حصرا , وهو ما يجب أن يكون عليه الوضع السليم لهذا الفن تماما , بعيدا عن كل نفاق كان أخلاقيا أم فنيا .

وعموما , يتفق نقاد الأدب في العصر الحديث , مع عالم الإجتماع الدكتور علي الوردي في آرائه النقدية وتحليلاته السوسيولوجية , بخصوص شعر المديح , وهذا الاتفاق في الآراء حصل بعد استقراء العديد من النصوص الشعرية , وتحليلها فكريا ونفسيا واجتماعيا , فشعر ((المديح لا يحترم سامعيه , ولا يقيم ملامسة حقيقية بين الواقع والمثال , أي أن الشعر أصبح حالة من الذهان القائم على تخيل مالا وجود له . وبالتالي سيطرة الوهم على الحقيقة والخيال على العقل والشك على اليقين)) [53] .

أما بخصوص العلاقة بين الشاعر وممدوحه , يتفق نقاد الأدب مع علماء الإجتماع على أنها علاقة غير صادقة - في معظم الأحيان - وغالبا ما تحكمها المادة أو المصلحة , ((لأننا نرى الشاعر لا يرى ممدوحه

أبدا , وإنما يتحدث عن شخص آخر لا يمت إلى الممدوح بأية صلة, وهذا يعني أن شاعر المديح لا يمدح بقدر ما ينحت تمثالا يرضيه .وبمعنى آخر أن الشاعر يتحدث عن شخص موجود في خياله كمثال أعلى , وهذا المثال مسخر لخدمة أغرض الشاعر , أي المصلحة المتوخاة من المديح)) [54].

على الشاعر - إذن - أن يسمو بفنه , وأن يصون نفسه , وأن يحترم متلقيه , وذلك بأن يقدم له القول الراقي , الذي يزرع في النفوس الإباء والعزة والكبرياء , بعيدا عن القول الذي يعلم النفاق والتملق والاستجداء . فمتى ما خان الشاعر نفسه , وأصبح مهرجا , خان جمهوره , وهنا يتم التزوير وقلب الحقائق أمام المتلقي , ((عندما تتحول معاني المديح إلى مهزلة إنسانية قائمة على الرياء والكذب والمحاباة والخوف ورغبة في الغنى السريع , يتحول الواقع إلى حلبة صراع تكون فيها القيم الضحية الأولى والأخيرة ... فبعض المديح , قد يكون حالة سلبية من الشعر وسلعة رخيصة قد تساهم في تزوير الحقائق, وتساوي بين الصح والخطأ , والحق والباطل...)) [55] .

وعليه , فمعظم النقاد يعيب على شعر المديح : ضيق الأفق , وعدم الموضوعية , وتزوير الحقائق , والمبالغة والغلو, والإسراف , وامتهان كرامة الشاعر من اجل المال . ومن ثم , فالمتلقي- غالبا- لا يتجاوب نفسيا مع مثل هذا النوع من الشعر . ((فالمديح شعر شخصي , محوره الفرد , لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفقها الواسع العام , لا يكاد يتصل بالنفس البشرية , يصورها في أطوارها المختلفة وحالاتها المتباينة . فالشاعر فيه يفتخر بنفسه وبقومه , والفخر ثقيل على القارئ , لأنه يصور الغرور, ويهاجم لبغضه وغيظه , والقارئ لا يشاركه هذا الشعور بالقياس إلى المهجو, ويمدح لرغبة في مال , أو جاه , والقارئ لا يصيب من وراء ذلك شيئا... ولعل من الحق والقصد البعيد عن التحيز, أن نقرر: أن مثل هذا الشعر لم يعد يجتذب هواة الفن الشعري , ولا المتعلمين ممن ينشدون اللذة الخالصة , والمتعة الروحية الرفيعة)) [56] .

وبالرغم من هذا الموقف النقدي المتشدد من شعر المديح , سواء عند نقاد الأدب أو عند علماء الإجتماع , ((فليس معنى هذا أن نسلب المديح كل قيمة فنية , فالواقع أن فيه نواحي كثيرة جميلة , وفيه بعض صور الإنسانية في طور من أطوارها , ولكننا نقول : أنها قد أصبحت بعيدة عن أذواق المعاصرين , وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا في الشعر نفسه لذة , ولكنهم يجدون هذه اللذة فيما ينشأ حوله من دراسات تعتمد التحليل والتعليل , فتخلق فيه شيئا فشيئا من النشاط والحركة التي ترد إليه الحياة , وتصله بالنفس الإنسانية , وتقربه من قلوب المعاصرين))[57] .

إن مثل هذه الدراسات الإجتماعية لفن المديح , ستعطي هذا النوع من الشعر مكانته الحقيقية في خارطة الشعر العربي , وستحكم بما له وبما عليه . وينبغي تشجيع مثل هذه الدراسات الهادفة , خدمة للأدب العربي ورسالته السامية , و بها - حتما - ستزول تلك النظرات القاصرة التي لازمت هذا النوع من الشعر طويلا . أو ظلمت قائليه من الشعراء !

ثالثاً- ظاهرة التغزل بالغلمان في الشعر العربي :

التغزل بالغلمان ظاهرة إنسانية - اجتماعية قديمة , كثر انتشارها , وذاع صيتها في العصر العباسي وما يليه , بسب شيوع الشذوذ الجنسي بين أفراد المجتمع , أو كثرة الانحرافات الجنسية فيه . وقد أخذت هذه الظاهرة الإجتماعية تطفو على سطح الحياة الأدبية وتظهر بوضوح , ولاسيما عند الشعراء العرب , بل أن من الشعراء العرب من اختص بهذا الغرض , وفي تعليله لهذه الظاهرة , يقول الوردي : ((الشعر العربي القديم , اختص بأمور ثلاثة قلما نجدها في أشعار الأمم الأخرى , وهي : (1) مدح الظالمين (2) وصف الخمرة (3) التغزل بالغلمان)) [58] .

ويذهب الوردي إلى أبعد من ذلك , ويؤكد أن الفترة المتأخرة من الحضارة العربية شهدت فيها شيوعا جنسيا بأعلى درجاته - اجتماعيا وأدبيا - بل صار الغزل بالمذكر من الصفات التي تميز بها الشعر العربي القديم , بل أن كبار شعراء العرب أخذوا ينظمون القصائد تلو القصائد في هذا الغرض , وما ذلك إلا بسبب وهو شيوع الشذوذ الجنسي في المجتمع في عهوده المتأخرة [59] .

ويعلل الدكتور علي الوردي هذه الظاهرة من وجهة نظر باحث اجتماعي , ويرفض أن يكون لهذه الظاهرة علاقة ((بالنزعة العرفانية الصوفية التي تقتضي تذكير الضمير , وليس له علاقة بتحاشي ضمير المؤنث خشية أن يتهم الشاعر في وصف امرأة بعينها , الأمر الذي يتحاشاه الشعراء تخوفا أو تأثما)) [60] .

وفي معرض رده على الذين ينكرون : بأن الشذوذ الجنسي لا دخل له في ظاهرة التغزل بالغلمان , أو ليس له علاقة بشيوع الغزل المذكر في الشعر العربي . يقول الوردي : ((ليس من الممكن أن ننكر وجود أسباب متعددة لشيوع الغزل المذكر بين الشعراء . ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر أثر الشذوذ الجنسي فيه . فلقد كان هذا الشذوذ منتشرا بين الناس , ولابد أن يظهر أثره في الشعر على وجه من الوجوه . ولا أقصد من هذا أن الشاعر الذي يتغزل بالمذكر لابد أن يكون مصابا بالشذوذ الجنسي . إنما أقول : إن انتشار الشذوذ بين الناس قد يؤدي بهم إلى استلطاف الغزل المذكر, وإلى تشجيع الشعراء على النظم فيه . ومعنى هذا : أن انتشار الشذوذ يخلق جوا مشجعا للغزل المذكر . والشاعر مضطر أن يجاري هذا الجو قليلا أو كثيرا , إذا أراد لشعره الذيوع والرواج))[61] .

والحقيقة أن ظاهرة الميل إلى الغلمان أو الارتكاس Inversion , أو الجنسية المثلية Homo Sexuality - كما يسميها علماء النفس - ظاهرة قديمة عرفها غير العرب منذ أقدم العصور .

كل الدلائل تشير إلى شيوع هذه العادة السيئة , وانتشارها الذريع في المجتمع العربي - ولاسيما في العصر العباسي - منذ منتصف القرن الثاني الهجري , عن طريق غير العرب من الأمم التي جمعتها الحضارة الإسلامية , لأن الانحطاط أنما نشأ عن اختلاط هذه الأجناس بأديانها المختلفة وعاداتها ومقاييسها ونظمها المتباينة [62] .

وثمة أسباب أخرى أدت إلى ظهور الميل إلى الغلمان , وشيوع الغزل بالمذكر في الشعر العربي , منها : ((شيوع الجواري في مجتمع القرن الثاني وما كن يبذلنه من مجون وانحطاط ويشعنه بين الناس من فساد وإقبال على الفاحشة أثر سئ أدى في جملة ما أدى إلى اتجاه الناس إلى نوع آخر جديد في مجتمع احتضن الحضارات وتفنن في ضروب الترف الإجتماعي , حتى أضحت المرأة فيه سلعة رخيصة , وبضاعة مبتذلة يمكن الحصول عليها بلا جهد ومشقة , مما أوجد نفورا عند أصحاب المتع الرخيصة , فراحوا يبحثون عن وسائل أخرى فوجدوا ضالتهم في الغلمان , ومن ثم راح الشعراء منهم يتغزلون فيهم ويذكرون قصصهم ووقائعهم معهم))[63] .

إن التحليل الإجتماعي لظاهرة الغزل بالمذكر في الشعر العربي القديم , الذي قام به الدكتور علي الوردي , أثبت – فعلا - أنها ظاهرة اجتماعية , وليست ظاهرة فنية شعرية , وإنما هو انعكاس الواقع الإجتماعي على الواقع الفني الأدبي , فالشاعر ابن بيئته, وهو من ثم يعيش حالة ما تفرزه هذه البيئة من سلوكيات اجتماعية حسنة أو سيئة . و للدكتور يوسف حسين بكار وجهة نظر في هذا الموضوع تتطابق تماما مع رأي الدكتور الوردي السابق , وهو قوله : ((ولا عجب , فقد وجد الشعراء المجان ممن أولع بهذا الغزل , في مجتمع فشا فيه هذا الميل , حتى شمل الشعراء وغير الشعراء , وأصبح يشكل صورة كبيرة فيه)) [64] . ولو كان الأمر محصورا بين الشعراء , لكان ظاهرة فنية فعلا , ولكنه تجاوزهم إلى غيرهم من أبناء المجتمع , فصار ظاهرة اجتماعية مرضية . ولذلك رفض الوردي التفسيرات التي لا علاقة لها بتعليل هذه الظاهرة , من مثل تفسيرها بالنزعة العرفانية الصوفية .

رابعاً- الشعر العربي بين البداوة والتحضر :

على الرغم من أن الشعر العربي لبس بزة الحضارة والتمدن , إلا أن روحه بقيت بدوية خالصة ! وهذا ما لفت نظر العديد من الباحثين فيه والدارسين لهذا الشعر, ومنهم – بالطبع- الدكتور علي الوردي , الذي وقف عند هذه الظاهرة الإجتماعية في شعرنا العربي , وأخذ يذكر أحد أسبابها بقوله : ((يلاحظ الباحثون في الشعر أنه عندما خرج من البادية وتحضر, ظل متمسكا بكثير من المعاني البدوية . وهذه ظاهرة اجتماعية , تلفت النظر... في رأيي أن من أسباب هذه الظاهرة , هو احتفاظ المجتمع العربي بكثير من قيم البداوة , بالرغم من

تحضره , وقد حفز هذا الشعراء على التغني بمعاني الجاهلية مع أنهم لم يشهدوا حياة البادية أو يعيشوا فيها)) [65] .

فأسباب ازدواج الشخصية عند الشاعر العربي , أي جمعه بين البداوة والتحضر في شعره وسلوكه الإجتماعي كذلك . يرجع – في رأي الوردي- إلى أنها مشكلة اجتماعية في الأساس , سببها جغرافية البيئة , أو مجاورة البادية للمدن المتحضرة . فمن ((مشاكل المجتمع العربي بوجه عام , أنه ذو شخصية مزدوجة . فهو حضري وبدوي في آن واحد . ومرد ذلك إلى متاخمته للصحراء واتصاله بها . فالبادية , إذن تمده بالقيم البدوية جيلا بعد جيل . وكلما حاول المجتمع أن يستكمل تحضره جاءته موجة بدوية جديدة , فعرقلت محاولته قليلا أو كثيرا . ولهذا صار الشعر العربي مزدوج الشخصية مثل مجتمعه , فهو موزع الفؤاد يميل إلى معاني البداوة تارة , وإلى معاني الحضارة تارة أخرى))[66] .

ويبدو أن لهذه المسألة علاقة بالنقد العربي القديم , وقواعده المفروضة على الشعراء , إذ طلب النقاد من شعراء عصرهم المتأخرين , أن يسلكوا منهج المتقدمين منهم في نظم الشعر , وهو ما شجع - أيضا - على وجود تلك المعاني البدوية في الشعر العربي . والتي أصبحت لدى المتأخرين من الشعراء تقاليد موروثة , لابد وأن يؤخذ بها في نظم الشعر وإنشاده , بل أن مراتب الشعراء وأفضليتهم , تحدد على أساس من ذلك الالتزام بوجود تلك المعاني في أشعارهم . يقول ابن قتيبة (ت 334 ه) :

((وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام , فيقف على منزل عامر, أو يبكي عند مشيد البنيان, لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي , أو يرحل على حمار, أو بغل , ويصفهما, لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير, أو يرد على المياه العذاب الجواري , لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي . أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد , لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة))[67].

ومن يخرج من الشعراء عن هذه الخصائص الموضوعية للقصيدة العربية(البدوية البناء) , لا يعد من الشعراء العرب ! بل وصل الأمر - كما يقول الدكتور محمد غنيمي هلال - إلى أن ((أنصار القديم من النقاد , كانوا لا يجيزون لمحدث أن يخرج في شئ على نظام القصيدة الجاهلي , ويعد منه ذلك شعوبية وتمردا على تراث أدبي ذي قداسة لديهم))[68] .

من خصائص الشعر العربي القديم , أنه يحمل قيما مشتركة من البداوة والتحضر, ولكنه يميل إلى البداوة أكثر , في رأي الوردي الذي يقول : ((إن الشعر العربي لا يخلو من القيم والمعاني الحضرية , ولكنه يحتوي بالإضافة إليها على من قيم البداوة ومعانيها , فلقد اقتبس الشعر العربي من الحضارة شيئا وورث من البداوة شيئا آخر . فصار بدويا وحضريا في آن واحد. ومن النادر أن نجد شعرا من هذا الطراز العجيب في غير هذه الأمة))[69] .

والحقيقة : أن كلا المنهجين : البداوة والحضارة , يمثلان جزءا من الحياة الإنسانية ويشكلانها , مما يفسر لنا حرص عالم الإجتماع الدكتور علي الوردي على دراسة تأثيرات هذه الثنائية الجميلة – ثنائية البداوة والحضارة – تارة على الأدب العربي , وتارة أخرى في دراسات اجتماعية حول المجتمع العربي , ولاسيما المجتمع العراقي .

خامساً- الشعر العربي الحديث :

رأى الوردي أن الشعر العربي الحديث قد هبطت مكانته الإجتماعية ! ويعلل الوردي ذلك , بأن الشعر العربي قد عانى من ظاهرة ((التناشز الإجتماعي))* . فالشعر العربي , بعد أن كانت له مكانة رفيعة بين الجمهور, ولكن هذه المكانة قد أخذت بالهبوط ((تحت تأثير الحضارة الحديثة , وهنا ظهر التناشز بين مكانة الشعر ومكانة الذين احترفوه . وبعبارة أخرى : أن مكانة الشعر هبطت ,ولكن الذين احترفوا الشعر لم يسهل عليهم الاعتراف بهذا الهبوط , فظلوا كما كانوا مولعين به ويريدون من الناس أن يولعوا به مثلهم))[70] .

ورأي الوردي هذا , لايعني: أن طبيعة الشعر العربي غير منسجمة مع طبيعة الحضارة الحديثة . بل يعني : أن الشعر العربي قد هبطت مكانته – وقد كانت مرموقة- في مجتمعنا, بسبب تأثير الحضارة الحديثة . وثمة فرق بين القولين . أضف إلى أن تغير أذواق الناس وتنوع اهتماماتهم الثقافية والإجتماعية , هي الأخرى قد أسهمت في إضعاف هذه المكانة والتحول عن الولع الكبير بالشعر إلى غيره من الآداب والفنون , كالقصة والمسرحية وغيرهما.

أما موقف الدكتور علي الوردي من حركة الشعر الحر , فهو موقف رافض لها ! إذ يعد هذا النوع من الشعر طارئا على الأدب العربي , غريبا على الثقافة الشعرية العربية الأصيلة , وأن محاولة تقليد بعض الشعراء العرب لهذه الحركة هي بلا جدوى , ولن يكتب لها إلا الفشل مستقبلا , لأن الذائقة العربية ترفضه ! يقول الوردي : ((في رأيي أن حركة الشعر الحر, لن يكتب لها النجاح عندنا . فهي موضة تقليدية طارئة كغيرها من الموضات التي تشيع فترة من الزمن , ثم تختفي بعدئذ وينساها الناس . إن الشعر الحر إن كان قد نجح في أوربا , فهو لا ينجح عندنا . إن كل ثقافة اجتماعية لها طابعها الخاص بها . فالثقافة العربية كانت- وما تزال- مولعة بالصياغة اللفظية . وان قسطا كبيرا من روعة الشعر العربي نابع من حلاوة صياغته اللفظية . وهذا هو الذي جعل الأبيات الشعرية الجميلة صارت أمثالا يرددها الناس على توالي الأجيال , ويترنمون بها))[71] .

ويبدو أن غياب الهزة النفسية , وذلك الترنم الجميل , والإنشاد المعروف , الذي يميز الشعر العربي الأصيل , هو الذي يبعد الجمهور العربي ذوقيا عن مثل هذا النوع من الشعر - في رأي الوردي- وكما يقول: ((إن الشعر الحر , أو الشعر المرسل , أو الشعر الذي لا أدري كيف أسميه , لم أجد أحدا يترنم به إلا في النادر . وحين يلقى على الجمهور لا يستطيع أن يؤثر فيه , كما يؤثر فيه الشعر الأصيل))[72] .

تبقى المسألة ذوقية , بالنسبة للنقاد بخصوص رفض أو قبول الشعر الحر , ولكل رأيه الخاص الذي يدافع عنه . ويعلق الأستاذ حميد المطبعي , على رأي الوردي السابق في قضية الشعر الحر , قائلا : ((لا أظن أن الوردي على حق في رأيه بالشعر الحر , فهذا الرأي يتناقض وأبسط مفاهيم العصر في التطور في مضامين الأدب الذي يدعو إليه , ومع هذا , فله اجتهاده في ((الذوق)) , مثلما له اجتهاده في ((الرأي)) !))[73] .

والحقيقة : أن الشعر الحر طريقة جديدة في نظم الشعر , أثبتت حضورها على الساحة الأدبية العربية , تمنح الحرية فيه للشاعر باختيار أكثر من بحر شعري , وتتنوع القافية في القصيدة الواحدة , ...إلخ . ولهذه الطريقة من النظم شعراؤها وجمهورها . وتبقى طريقة فنية في نظم الشعر العربي , طالما التزم الشاعر فيها ما لا يخرج به عن حدود الشعر وصناعته .

يقول الشاعر بدر شاكر السياب : ((إن الشعر الحر أكثر من مجرد اختلاف عدد التفعيلات المتشابهة بين بيت وآخر , إنه بناء فني جديد , واتجاه واقعي جديد , جاء ليسحق الميوعة الرومانتكية وأدب الأبراج العاجية وجمود الكلاسيكية . كما جاء ليسحق الشعر الخطابي الذي أعتاد السياسيون والاجتماعيون الكتابة به)) [74] .

وعلى الرغم من عظمة فن كفن الشعر عند العرب , إلا أن الدكتور علي الوردي انتقد رافضا أن يسيطر هذا الفن وحده على اهتمام العرب , دونما باقي الفنون الأخرى كالرسم أو التمثيل, وغيرهما. ورأيه صحيح ((أن الشعر فن عظيم , والعبقري فيه لا يقل في عظمته عن عباقرة الرسم أو النحت أو الرقص أو التمثيل أو غيرها من الفنون . والمعروف عن العرب أنهم أكثر الأمم اهتماما بالشعر وانهماكا فيه . وهذا أمر لا عيب فيه . وقد يجوز أن يكون موضوع فخار. فكل أمة لها خصائصها الناشئة عن ظروفها , وقد اختص العرب بالشعر لظروف اقتضت منهم ذلك . ولكن الذي ننتقده فيهم في عصرنا أنهم أعطوا الشعر مجالا من حياتهم الفكرية أكثر مما ينبغي))[75].

والذي ذهب إليه الوردي في مسألة احتكار فن الشعر للعقلية العربية وذائقتها , أكثر من سواه من الفنون الأخرى , يعلّله الناقد محمد مبارك بقوله :

((إن تعلقنا بالشعر قيمة جمالية- ذهنية مطلقة. فبنية عقلنا التي يحتل فيها الشعر موقعا أثيرا , من حيث نحن أمة أقرب إلى البداوة وأنماط فكرها وحسها منا إلى الحضارة الحديثة بقيمها العتيدة في استبدال الأنماط الموضوعية في الأدب – القصة القصيرة , الرواية , المسرحية , بالشعر ... والمتعة الذهنية في الحساسية الجمالية بالمتعة الحسية , والتركيب السنفوني ... وهو في ذلك إنما يؤشر طغيان الطبيعة الصوتية – اللغوية في تركيبة بنيتنا الذهنية , حيث نضحي مجرد ظاهرة صوتية , تعول على الصياغة اللغوية لا الوقائع العينية .. وتدير ظهرها للوجود المادي احتفاء بالتراكيب الصائتة المجلجلة))[76] .

والوردي , لا يريد أن يكون الشعر العربي بلا حدود , وعلى العرب ألا يغالوا فيه , على حساب العلوم والثقافات الأخرى , وعليه يدعو الوردي إلى : ((أن نقلل غلوائنا في الشعر . إن الشعر له وظيفة في الحياة كغيره من الفنون, غير أن له حدودا ينبغي أن نقف عندها . إن الرأي الذي أميل إليه في موضوع الشعر مستمد من الحكمة العربية القائلة :((خير الأمور أوسطها)). أي أننا يجب أن نسير فيه بلا إفراط ولا تفريط))[77] .

والوردي - بعد ذلك - لا ينكر حقيقة : أن نظم الشعر عند العرب , هو الفن الغالب -حتما- بحيث وصل العرب فيه إلى درجة الانهماك المفرط في نظمه , دونما باقي فنون الأدب . ولذلك أخذ يتساءل في قوله : ((يوصف العرب بأنهم أمة شاعرة , وقد انهمك العرب في الشعر قديما بحيث تفوقوا في ذلك على جميع الأمم... والسؤال الذي يواجهنا هنا : هل يجب أن نبقى محافظين على هذا الانهماك المفرط في الشعر بالرغم من تغير الظروف ؟!))[78] .

وبلا ريب : أن الأمور قد تغيرت الآن , وأخذ الأدباء العرب يكتبون القصة والرواية والمسرحية , وغيرها من فنون الأدب , بحيث وصلوا فيها إلى درجة الإبداع والعالمية . ولكن يبقى للشعر العربي منزلته وهيبته بين الفنون !

سادساً- الشاعر واللغة :

ثمة علاقة بين الشاعر ولغته , وهي علاقة تفاعلية خاصة , لا توجد إلا بينهما , وسر هذه العلاقة يعود - كما تقول الشاعرة الناقدة نازك الملائكة - إلى : ((وجود رابطة خفية بين الشاعر ولغته التي يستعملها في نظم الشعر, وتلك رابطة يختص بها الشاعر , لأننا لا نجد مثيلا لها بين الأديب الناثر ولغته . وسر هذا الاختصاص لدى الشاعر , أنه أكثر انقيادا واستسلاما إلى اللاوعي اللغوي , بسبب ما يملك من إحساس مرهف مشحون وروح محتشد زاخم , حتى يكاد الشعر يصبح سلسلة من الرحلات في الأعماق الباطنة للغة , يقوم الشاعر بإحداها في كل قصيدة يبدعها , حتى تصير القصيدة كيانا له تاريخ وهيكل وأبعاد أربعة))[79] .

فاللغة , حية منتجة في طبيعتها, وكلما أعطاها الشاعر من اهتمامه ووقته واطلاعه , أعطته من كنوزها الشئ الكثير أيضا , ((وإنما اللغة كنز الشاعر وثروته . إنها جنيته الملهمة , في يدها مصدر شاعريته ووحيه , فكلما ازدادت صلته بها وتحسسه لها , كشفت عن أسرارها المذهلة وفتحت له كنوزها الدفينة))[80] .

وللدور الكبير للغة في نظم الشعر , وللأهمية الخاصة لها في فن القول هذا . يحكم النقاد على شاعرية الشاعر من خلال لغته , فهي التي قد تعلو بمكانته , وهي التي قد تهبط بهذه المكانة - في أحيان كثيرة - ذلك أن ((مكونات الشعر وصفاته , تتركز في لغته , لذا فأن اللغة هي الباب الرئيس للدخول والتمعن في الشعر , وهي الطريق المهم لدراسته , واكتشاف قدرته على التطور والنمو))[81] .

أما العلاقة بين الشاعر العربي واللغة العربية , فكانت مدار بحث موضوعي في فكر الدكتور علي الوردي أيضا . فقد نظر الوردي إلى اللغة العربية نظرة تختلف عن غيره من الدارسين . فهو يرى أن لغتنا العربية نشأت متأثرة بفن الشعر . يقول : ((فما دامت اللغة قد نشأت في مجتمع منهمك بالشعر , فلابد أن تكون ذات خصائص ملائمة لطبيعة الشعر قليلا أو كثيرا . إنها لابد أن تكون لغة عاطفية تهتم باللفظ الرنان , أكثر مما تهتم بالمعنى الدقيق .

وإني إذ أقول هذا لا أقصد ذم به اللغة العربية , أو الحط من شانها . إنما أقصد بالأحرى تقرير أمر واقع . وليس بقدور أية لغة – تنشأ في مثل المجتمع الذي نشأت فيه اللغة العربية – أن لا تكون كذلك . وأرجو أن لا يمنعنا حبنا للغتنا من النظر في طبيعتها نظرا موضوعيا))[82].

ولا نتفق مع الوردي , فيما ذهب إليه بشأن لغتنا العربية , من أنها لغة ألفاظ رنانة حسب ! صحيح أن لغتنا العربية نشأت متأثرة بالشعر , ولكن هذه النشأة لم تمنع لغتنا – أطلاقا - من أنها تكون لغة للأدب والفن والعلم والدين والحياة . فهي لغة الأمثال والحكم والنوادر والقصص التي فيها من معاني اللغة والأدب والحياة الشيء الكثير .

ولا ينكر الوردي حصول تغيرات طرأت على خصائص لغتنا العربية , ولاسيما بعد انتقالها من مجتمع البادية إلى مجتمع المدينة , ولكنه يبقى تغيرا جزئيا . يقول : ((ونحن لا ننكر بعد هذا حدوث تغير على اللغة وخصائصها عندما انتقلت من البادية إلى حياة المدن . ولكن هذا التغير لم يكن شاملا , فقد ظل في اللغة بعض البقايا من التراث الشعري القديم . ولا نزال نشعر بوجود هذه البقايا في لغتنا حتى يومنا))[38] .

ورفض الوردي الرأي القائل : إن العرب تمكنوا من نظم الشعر لما في لغتهم من خصائص تعينهم على ذلك ! فأنكر هذا الرأي , وأكد أن الشاعر العربي , هو الذي خلق اللغة , وليس العكس . فقال في معرض رده على البستاني مترجم الإلياذة :

((إن اللغة العربية لم تخلق الشاعر العربي , إنما الشاعر العربي هو الذي خلقها , فمادام العرب مولعين بصناعة الشعر , فلابد أن يؤدي ذلك إلى خلق لغة تعينهم في تلك الصناعة . والظاهر أن مؤرخي الأدب العربي لا يستطيعون أن يفهموا هذه الحقيقة , ولعلهم يعتقدون بأن اللغة العربية مخلوقة منذ الأزل على تلك الشاكلة التي انفردت بها))[84] .

وهذا يعني : أن الشاعر العربي طوع اللغة العربية خدمة لموهبته وفنه الشعري , وكذلك أوجد قاموسه الشعري الخاص به . بل وصل الأمر إلى أن الشاعر العربي يعد مرجعا موثوقا به لهذه اللغة .

أما عن العلاقة بين اللغة والمجتمع , وأيهما يعد صنيعة الآخر . يوضح الدكتور علي الوردي هذه المسألة , بقوله : ((اللغة بوجه عام صنيعة المجتمع ووليدة حاجاته , وهي تنمو حسب الظروف المحيطة بها . فإذا كان المجتمع منهمكا في الشعر , صارت لغته ذات خصائص ملائمة لهذا الانهماك , وهي لا تستطيع إذن أن تكون ذات خصائص أخرى مخالفة))[85] .

وعن العلاقة بين الشاعر المبدع , وخلق اللغة الشعرية , فثمة علاقة جوهرية مابين الاثنين – ضمن عملية الخلق المتبادل بينهما – فكلما تمكن الشاعر من لغته , استطاع أن يبدع فنيا , وأن يكون خلاقا في صنعته , لأنه يتحرك في ميدان رحب من الألفاظ . وهذا ما يشير الوردي إليه في قوله :

((إن الشاعر الجاهلي خلق اللغة العربية . وكنت أعني بالشاعر نوعه لا شخصه . أما الشاعر كشخص معين فهو بالنسبة للغة خالق ومخلوق قي آن واحد . وأقصد بذلك أنه يتلقى اللغة من أسلافه, فيستعين بها على نظم الشعر في أول الأمر , حتى اذا اشتهر وتناقلت شعره الرواة وخشي من لسانه , استطاع أن يكون خلاقا مجددا من الناحية اللغوية , وعند هذا نجده يأتي بالألفاظ والتراكيب الجديدة يصنعا كما يشاء , فلا يجرأ أحد على انتقاده أو الاعتراض عليه . فالشاعر, إذا كان فحلا سليط اللسان , قوي العبارة , صار منبعا للإبداع اللغوي . فهو قد يصطنع ألفاظا لم تكن من قبل , أو يركب الجملة كما توحي إليه القريحة آنيا . ويأتي الناس من بعده , فيأخذون ما قال ويحتذون به))[86] .

والوردي , بهذا يشير إلى أن ثمة علاقة بين فحولة الشاعر , وتمكنه من اللغة , والإبداع فيها , فالشاعر , كلما أكثر من التصرف والابتكار في مفردات اللغة , صار حجة فيها , وكان قدوة لغيره من الشعراء , وفحلا من فحول الشعر , يتأثر باقي الشعراء به , ويأخذ عنه علماء اللغة كذلك .

أما عن حرية الشاعر في استخدام مفردات اللغة , وتطويعها خدمة لفنه الشعري , فيرى الوردي : أن شعراء الجاهلية كانوا أكثر تحررا من سواهم من الشعراء المتأخرين , في استعمال تلك المفردات اللغوية . وكما يوضح في قوله : ((كان الشاعر الجاهلي حرا يتصرف بلغته كما يشاء . وجاء المتأخرون فاستنبطوا من تلك الحرية قيودا . وأخذوا يلتزمونها في شعرهم .فهم يفعلون ما فعل الأسلاف , ولا يزيدون من عندهم عليه شيئا .

ومعنى هذا , أن اللغة العربية ظلت في أيدي المتأخرين على ميوعتها القديمة , من غير زيادة أو نقصان , ولعل من الجائز أن نصفها , بأنها صارت ذات ميوعة جامدة . ويصعب علينا أن نتنبأ هنا كيف يمكن أن يكون مصير اللغة العربية , لو بقي الشعراء المتأخرين , يتصرفون بلغتهم كما كان يتصرف الشاعر الجاهلي))[87] .

ويبقى سر الإبداع في الشعر , والتفوق فيه , يكمن في اللغة , والمقدرة على التصرف في مفرداتها . فكلما طوع الشاعر هذه اللغة لصناعته , ارتفعت منزلته بين الشعراء , بل , وحلق بعيدا عنهم في الأفق الواسع لفضاء الشعر!

نتائج البحث :

يمكن إيجاز أهم نتائج البحث , فيما يأتي :

1) انتقد الدكتور علي الوردي نظرية الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي التي خلاصتها أن هذا الشعر منحول ومشكوك فيه ! مفندا ما ذهب إليه طه حسين في نظريته تلك . ودعا الوردي إلى دراسة هذا الموضوع من منظور آخر - غير المنظور اللغوي - كالمنظور الاجتماعي , حتى نستطيع أن نتبين حقيقة هذا الشعر , وتمثيله الصادق , أو غير الصادق للحياة الجاهلية .

2) رفض الوردي مايسمى بشعر المديح , وعد معظمه شعر استجداء , لا يليق بشخصية الشاعر العربي أو بمكانته المرموقة في المجتمع . منتقدا دور النقاد العرب الذين شجعوا الشعراء على نظم مثل هذا النوع من الشعر , فهم قد أسهموا بشكل أو بآخر في وضع قواعد للمدح , أو رسم طريق للشعراء لكي يتعلموا كيف يستجدون الحكام , أو الوزراء , أو الأغنياء .

3) يستطيع الباحث عن طريق شعر المديح استقراء الكثير من القيم الإجتماعية التي تميز بها المجتمع العربي , وعلى مر عصوره . لذا , فالوردي , يدعو الباحثين إلى دراسة هذا النوع من الشعر دراسة اجتماعية .

4) أثبت الوردي أن التغزل بالغلمان في الشعر العربي , ظاهرة اجتماعية , وليست ظاهرة فنية شعرية , وإنما هو انعكاس للواقع الإجتماعي على الواقع الفني الأدبي .

5) يعتقد الوردي أن البداوة والتحضر في الشعر العربي ظاهرتان اجتماعيتان مؤثرتان في الواقع الأدبي العربي , ومن ثم فهما يستحقان الدراسة والاهتمام من قبل الباحثين .

6) يؤكد الوردي على أن العلاقة بين الشاعر ولغته علاقة خاصة , وكلما تمكن الشاعر من لغته وأبدع فيها , استطاع أن يبدع فنيا في شعره , وأن يكون خلاقا في صنعته .

السيرة العلمية للدكتور علي الوردي (1913م-1995م):

الدكتور علي الوردي , عالم اجتماع عراقي , وأستاذ مؤرخ , عرف باعتداله وموضوعيته , ولد في مدينة الكاظمية المقدسة في بغداد , حصل على الماجستير والدكتوراه في علم الإجتماع من جامعة ((تكساس)) الأمريكية سنة 1950م , عين مدرسا لعلم الإجتماع في كلية الآداب , جامعة بغداد 1950م , أحيل على التقاعد بناء على طلبه ومنحته جامعة بغداد لقب (أستاذ متمرس) , عام 1970م . من مؤلفاته المطبوعة : شخصية

الفرد العراقي / 1951م , وخوارق الشعور / 1952م , ووعاظ السلاطين / 1954م , ومهزلة العقل البشري /1955م , وأسطورة الأدب الرفيع /1957م , والأحلام بين العلم والعقيدة / 1959م , ومنطق ابن خلدون /1962م , ودراسة في طبيعة المجتمع العراقي / 1965م , ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (ثمانية أجزاء) / 1969م - 1979م , وهكذا قتلوا قرة العين / 1991م , ومن وحي الثمانين / 1996م , وفي الطبيعة البشرية / 1996م , ودروس من حياتي / د. ت .

ما ترجم إلى اللغات الأجنبية من أبحاث الدكتور علي الوردي :

(1) كتاب : ((دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)) , ترجم إلى اللغة الألمانية من قبل الدكتور " فايروخ" , ونشرته دار النشر الجامعية في ألمانيا الغربية في عام 1972م .

(2) كتاب : ((وعاظ السلاطين)) , ترجم إلى لغة شرقية في عام 1955م . البحث الذي ألقاه في المؤتمر الإجتماعي العالمي السادس في " إيفيان " في عام 1966م , ترجم إلى اللغة الأسبانية , ونشرته مجلة علم الإجتماع التي تصدرها جامعة المكسيك في نيسان 1967م .

(3) أطروحته التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة تكساس الأمريكية في عام 1955م , نشرتها دار النشر الأمريكية "هول" في عام 1981م .

(4) مقتطفات من كتاب : ((دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)) نشرتها دار النشر الألمانية " انتون هاينمايز نهايم" في عام 1974م .

توفي الدكتور علي الوردي في الثالث عشر من شهر تموز عام 1995م , رحمه الله .

الهوامش :

(1) علم اجتماع الأدب : 15.

(2) تحليل الخطاب كمنهج في السوسيولوجيا : 168.

(3) نفسه : 169.

(4) مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي : 44.

(5) علم اجتماع الأدب : 14.

(6) أسطورة الأدب الرفيع : 53.

(7) المصدر السابق : 13 .

(8) علم الإجتماع والأيديولوجيات : 270 .

(9) علم الإجتماع الأدبي : 69 .

(10) علم اجتماع الأدب : 20.

(11) المصدر السابق : 61.

(12) محاضرات في نظرية الأدب :124.

(13) الأدب والمجتمع : 75-76.

(14) نفسه : 76.

(15) علم الإجتماع الأدبي : 109.

(16) نفسه : 8 .

(17) أسطورة الأدب الرفيع : 118.

(18) نفسه : 119.

(19) في الأدب الجاهلي : 65.

(20) نفسه : 70.

(21) نفسه , ص 73.

(22) أسطورة الأدب الرفيع : 121.

(23) نفسه : 122.

(24) نفسه .

(25) نفسه : 122-123.

(26) نفسه : 126-127.

(27) نفسه : 140.

(28) نفسه : 239.

(29) نفسه : 9.

(30) نفسه : 239-240.

(31) نفسه :82.

(32) نفسه .

(33) نفسه.

(34) النقد الأدبي الحديث : 321.

(35) علي الوردي يدافع عن نفسه : 115-116.

(36) المصدر السابق : 485.

(37) نفسه : 683.

(38) المصدر السابق : 116.

(39) النقد الأدبي الحديث : 483.

(40) أسطورة الأدب الرفيع : 293.

(41) نفسه : 52.

(42) نفسه : 98.

(43) نفسه : 98-101.

(44) علم الإجتماع الأدبي : 47.

(45) تحليل الخطاب كمنهج في السوسيولوجيا : 173-174.

(46) سوسيولوجيا النقد العربي القديم : 140.

(47) نفسه : 146.

(48) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : 34-35.

(49) في النص الشعري العربي : 180.

(50) التيارات المعاصرة في النقد الأدبي : 147-148.

(51) أسطورة الأدب الرفيع : 244.

(52) محاضرات في عنصر الصدق في الأدب : 34.

(53) مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب : 243.

(54) نفسه : 243.

(55) نفسه .

(56) الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام : 158.

(57) المصدر السابق :228.

(58) أسطورة الأدب الرفيع : 52.

(59) نفسه : 71.

(60) نفسه .

(61) نفسه : 72.

(62) ينظر: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري : 195ومابعدها.

(63) نفسه : 209.

(64) نفسه : 195.

(65) المصدر السابق : 101.

(66) نفسه : 102.

(67) الشعر والشعراء : 11.

(68) النقد الأدبي الحديث : 187-178.

(69) أسطورة الأدب الرفيع : 104.

* يشرح الدكتور علي الوردي ظاهرة " التناشز الاجتماعي" , فيقول : ((إن التناشز الإجتماعي يرادف كل تغير يقع في المجتمع , وكلما كان التغير أكبر وأسرع , كان التناشز الإجتماعي أشد وأكثر تنوعا . وسبب التناشز أن أجزاء التراثية الإجتماعية لا تتغير كلها على وتيرة واحدة أو بسرعة واحدة . فمنها ما يتغير ببطء ومنها ما يتغير بسرعة, وعلى درجات متفاوتة .وهذا يؤدي إلى ظهور بعض المشاكل الإجتماعية أو المآزق والأزمات)) . علي الوردي يدافع عن نفسه : 122.

(70) علي الوردي يدافع عن نفسه : 122-123.

(71) نفسه : 130.

(72) نفسه : 131.

(73) نفسه : 130.

(74) من أعلام الشعر العربي الحديث , بدر شاكر السياب : 19.

(75) نفسه : 119.

(76) صورة جيل في فكر رجل : 62.

(77) المصدر السابق : 126.

(78) نفسه : 127.

(79) سيكولوجية الشعر ومقالات أخرى : 9.

(80) نفسه : 10.

(81) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي : 52.

(82) أسطورة الأدب الرفيع : 128 .

(83) نفسه .

(84) نفسه : 132.

(85) نفسه .

(86) نفسه : 133.

(87) نفسه : 134.

<u>المصادر والمراجع</u> :

<u>أولا- الكتب :</u>

1) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري , د. يوسف حسين بكار, دار المعارف , مصر, 1971م .

2) أسطورة الأدب الرفيع , د. علي الوردي , منشورات سعيد بن جبير, قم المقدسة , إيران , ط1 , 2005م .

3) تاريخ النقد الأدبي عند العرب , د. إحسان عباس, دار الأمانة, بيروت, ط1 ,1971م .

4) التيارات المعاصرة في النقد الأدبي , د. بدوي طبانة , دار الثقافة , بيروت ,1985م .

5) سيكولوجية الشعر ومقالات أخرى , نازك الملائكة , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , ط1 , 1993م .

6) الشعر والشعراء , أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري , تحقيق : د. عمر الطعان, دار الأرقم بن أبي الأرقم , بيروت , ط1 ,1997م .

7) علم اجتماع الأدب , د. محمد سعيد فرح , د. مصطفى خلف , دار المسيرة للنشر, الأردن, ط1 , 2009م

8) علم الإجتماع الأدبي (منهج "سوسيولوجي" في القراءة والنقد) , د. أنور عبد الحميد الموسى , دار النهضة العربية , بيروت , ط1 , 2011م .

9) علم الإجتماع والأيديولوجيات , محمد إسماعيل , الهيأة المصرية للكتاب , 1979م .

10) علي الوردي يدافع عن نفسه , حميد المطبعي , منشورات وتوزيع المكتبة العالمية , بغداد , ط1 , 1986م .

11) في الأدب الجاهلي , د. طه حسين , دار المعارف , مصر , ط10 , (د. ت) .

12) في النص الشعري , د. سامي سويدان , دار الآداب , بيروت , ط1 , 1989م .

13) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي , تلازم التراث والمعاصرة , محمد رضا مبارك , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , ط1 , 1993م .

14) محاضرات في عنصر الصدق في الأدب , د. محمد النويهي , مصر , 1959م .

15) محاضرات في نظرية الأدب , شكري عزيز الماضي , دار البعث , قسطنطينة , الجزائر , ط1 , 1984م.

16) مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي , محيي الدين أبو شقرا , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط1 , 2005م .

17) من أعلام الشعر العربي الحديث , بدر شاكر السياب , ريتا عوض , منشورات المكتبة العالمية , بغداد , ط3, 1987م .

18) النقد الأدبي الحديث , د. محمد غنيمي هلال , دار الثقافة , بيروت , 1973م .

19) الهجاء والهجاءون , د. محمد محمد حسين , دار النهضة , بيروت , ط2 ,1970م .

ثانيا- الدوريات :

1) الأدب والمجتمع , مدخل إلى علم الإجتماع الأدبي , د. صبري حافظ , مجلة فصول المصرية , القاهرة , مج 1,ع 2, 1984م .

2) تحليل الخطاب كمنهج في السوسيولوجيا , زبيدة بو رحيل , مجلة البحث العلمي , جامعة محمد الخامس , الرباط , ع 34 , 1984م .

3) سوسيولوجيا النقد العربي القديم , د. داود سلوم , مجلة جرش , الأردن , ع 2 مج 4 , حزيران , 2000م .

4) صورة جيل في فكر رجل , محمد مبارك , مجلة آفاق عربية , بغداد , ع 7-8 , آب – تموز , 1995م .